خطوات في الفراغ ..

قصة بقلم سهيل الخالدي

... سقط على الكنبة كحجر ثقيل مجيلا بصره في أرجاء الغرفة ... البيت جبل من النفايات ، صورته المغلقة كعرف أبله على الجدار البنفسجي اللامع والتلفزيون القابع في الركن كبابا نويل وستائر النوافذ أشياء تشعره بالتعاسة والغموض .

قام الى مكتبته الفاغرة أشداقها كحوت جائع وقلب بضع صفحات في كتاب يتحدث عن الهزيمة ، ولما لم يأنس في نفسه رغبة في القراءة ألقاه على كنبة وجلس على أخرى ثم أشعل سيجارة والغموض لم يزل يحفر رأسه حفرا ناعما متواصلا ومؤلما كماكنة طبيب الاسنان ...

أكاد أنطحن يا رب ... رحماك يا رب ، أكاد أموت ، وفتح الثلاجة وتناول منها تفاحة قضمها بأسنانه .. أحس بحاجته للتقيؤ فذهب الى الحمام مدخلا أصبعه في فمه ولكن دون جدوى ... ثم بال في المبولة ـ كان لون بوله أصفر ـ . عاد الى مكانه بعد أن تناول كمانا معلقا في الصالون ... جلس ليعزف أي نغم فجاء لحنا يقطر حزنا ولم يتمه آذ شعر وكأن صرصورا يمشي على جدار بلعومها من الداخل فعرف وتحسس جيبه بحثا عن منديل فلم يجد ... التفت الى المنفضه فوجدها حبلى ... تراجع وبصق في معدته ... ألقى الكمان وعاد الى الكتاب .

* * *

ما أن لفظه البيت وابتلعه الشارع حتى زرع بين شفتيه سيجارة لم يستجب لها الثقاب الا بجهد أستوقفه ... تابع السير بقامته الرفيعة القصيرة وكأنها ابرة مذياع ... المدينة قطعة بسكويت قديمة كالحة وليس لها كنه ... الناس دمى ملونة ، شرطي المرور كهرة داستها دراجة نارية .

شاهد متسولا أعمى يرفع صوته بالاستجداء كلما أحس بوقع أقدام تقترب منه ، فتمنى لو يركله بقسوة ... علقت عيناه بسافي فتاة تردي الميني جوب لونهما بلون الكاكاو بحليب فبلع ريقه بصعوبة متناهية وبانت الدنيا أمامه كفقاعة صابون مبعوجة وجسمه كحبة أرز بائتة .

مر بجانبه جندي فلسطيني متأبطا سلاحه يمشي كالواثق من نفسه ، ولم يستطع حين عبره منع رأسه من التلفت الى خلف ... ما زال الفدائي يسير بنفس الخطى وفوهة رشيشه الاسود تطل من تحت أبطه كالقدر ... لذيذ هو الموت مع هؤلاء ومثلهم .. لذيذ هو... ذكرته عبارة الموت بحبه الاول ... تذكره بقلب مثقوب ، ميادة يا شمعة عمر محروقة ، جاءك السرطان كالموت فجأة .. السرطان كالموت .. نعم لا شيء يشبه الموت الا الموت نفسه يا عزيزتي .

عاود التلفت الى الخلف .. ثمة ماسح أحذية صغير يتعلق بأهداب الجندي ... أخذ يستعيد ملامح الجندي .. وجه طويل متناسق كموال شعبي .. صدر رياضي و.. صفعه شذى عطر فواح من مجموعة نسوة يثرثرن أمام واجهة احدى المحال ... أسلم رأسه للاحزان بينما ظلت عيونه تبحث والصدأ يعلو قلبه .

***

دلف الكافتيريا ونفسه مسفوحة في داخله تنز كدم اصبع مجروحة .. أجبر معدته على نصف زجاجة فيشي وغداء دسم يحتسي مع كل لقمة رشفة من نبيذ .. وأحس كأن قلبه الذي يهضم الطعام.. يا أيتها المعدة العنيدة متى سأفهمك ؟.. متى .. قولي أيتها القذرة .

وقفت لقمة في بلعومه فابعها رشفة كبيرة أنهت ما في الكأس فملأها ثانية وزاح الزجاجة الفارغة الى أقصى المائدة .

ازداد بطؤه في الاكل حين تساءل : ـ ما هي المشكلة التي أعانيها ؟ ما الذي أريده بالضبط ؟! ليس هناك مشكلة ، كل ما في الامر انني ... أن هناك شيئا غريبا ... نعم غريب ـ وصك أسنانه ـ غريب ... وما هي هذه الاشياء الغريبة ... ليس هناك أغرب من قولك لسيدة فاتنة ـ كالتي قبالتك ـ آلا تشعرين بالنعاس ؟ أو ان يولد طفل وأمه بين أحضان رجل غريب ... هذه هي الاشياء الغريبة ... لا ، هناك أشياء أغرب ، كأن أموت الان بالسكتة القلبية (تذكر فجأة الفدائي الفلسطيني) ... يا عبد المنعم يوسف ما هي مشكلتك ؟ ... أنها عبد المنعم يوسف .. نعم انك أنت الغريب . ولاك آخر لقمة بغير أحساس بالشبع مثلما قد بدأ بغير احساس بالجوع ، ثم أتبع اللقمة بثمالة الدأس وأخرج سيجارة دخنها برغبة أكيدة وراح يختلس النظر الى تقاطيع السيدة التي أمامه ـ الوجه الطفولي والانف الروماني والعيون الخضر ... منذ متى لم أشاهد صرة امرأة ؟.. منذ النكسه لم أزن ... آه على زنية تطول شهرا ... لا .. لست بحاجة .. لست بحاجة الى نساء .

كسر السيجارة في المنفضة وخرج كمن يخرج من جحيم .

***

رأى عيني رجل كل واحدة بلون فدهش لحظة وجحظت عيناه كأنهما عينا مصدور في نوبة سعال حادة .. سمع زامور سيارة أسعاف فشعر بقلبه يتأرجح في صدره كوطواط معلق الى غصن يكاد يسقط ، والتطمت كتفه بشرطي فاعتذر ثم تابع سيره الجنائزي .

مر بمحاذاته عامل يعلو وجهه الهباب ويده الخشنة تمسك بجريدة وتحت ابطه بعض أرغفة ... شاهد فدائيا اخر يشتري سمكا ... تذكر طفولته في سمخ .. سمخ يا أيتها المدينة الساذجة وأهلك البسطاء وأسماكك المرتعشة في مياه البحيرة الرقراقة .. يا مدينتي الحلوة .. ومرت بذهنه صورته طفلا يلعب الكرة في الساحات مع أترابه ، وليالي الاعراس حيث كان يحشر نفسه في ذيل صف « الدبيكة » ليتعلم منهم .. وابتسم حين ذكر جارتهم أم منصور اذ تضبطه وهو في القن يسرق البيض ... سمخ أيا غنوة محفورة في الشريان .

انتبه على همسهسة ناعمة كرمل سيناء ، فاذا زمرة من الجند الفلسطينيين يتضاحكون يمرون بمحاذاته فيلقي عليه أقربهم التحية.. توقف بعد خطوات عند بائع فلافل وتطلع الى يمينه متابعا البزات الموهة تعبر الشارع كزورق يمخر العباب .

ـ خدامة يا أستاذ .

ـ . . . . . .

ـ خدامة يا أستاذ .

ـ سندويش فلافل .. قالها بلهجة حاسمة يكاد يكون معناها اخرس وظل متابعا التطلع ، وقبل أن يضيعوا في الزحام حث الخطى نحوهم ... أسرع يا عبد المنعم .. أسرع .. الغربة ماتت .. شد رجليك ، أسرع قبل غيابهم .. قبل أن يبعدوا ، الغربة ماتت يا عبد المنعم .. وظلت خطواته تتلاحق كهارب من فراغ .

الاردن ـ الزرقاء

سهيل الخالدي